

بما ينتج عن ذلك من آثار سلبية على الصحة العمومية،
ولا عن صراعات إجتماعية خاصة بين الجيلين.
وهذه كلها سلوكيات تميز في الواقع عن عجز الجزائريين
عن التكيف مع شروط الحياة داخل المحيط الحضري، و
استمرار تعاملهم مع البيئة وفقا للسلوكيات التقليدية
بفعل تأثير النظام الاجتماعي التقليدي.
الكلمات المفتاحية: النظام الاجتماعي التقليدي، تدهور
البيئة، المحيط الحضري

Résumé :

L'analyse de la dégradation
environnementale dans la société algérienne
commence par l'étude et l'analyse psycho-
sociale de certains comportements simples, à
savoir le fait jeter des déchets tout le temps,
partout, et sous toutes les formes ; des
comportements qui proviennent de
personnes de tous âges, de tous les niveaux
culturels et socioéconomiques, et des deux
sexes.

Il n'est pas rare de voir des personnes ouvrir
les fenêtres de leurs voitures de luxes pour
jeter les restes de nourriture, des bouteilles
en plastiques ou d'autres déchets. Les
maîtresses de maisons ne se gênent même pas
lorsqu'elles lancent des sachets de poubelles
ou des seaux d'eau usée de leurs balcons,
c'est aussi le cas des jeunes et des enfants
qui jettent des sacs poubelles, ou tout autre
déchets, à seulement quelques mètres des
poubelles ; tous indifférents aux
conséquences de leurs actes sur la santé
publique et/ou sur les relations sociales et
les conflits que cela peut engendrer entre
voisins.

Tout ceci illustre au fait l'incapacité des
Algériens à s'adapter aux conditions de vie
en milieu urbain, et qu'ils continuent à faire
face à l'environnement selon les
comportements traditionnels dus à
l'influence du système social traditionnel.

Les mots clés:

Système social traditionnel, dégradation de
l'environnement, environnement urbain

تأثير النظام الاجتماعي

التقليدي على تعامل الفرد

مع البيئة

في المحيط الحضري

د . ساجية مخلوف

جامعة الجزائر 2

ملخص البحث:

إنّ تحليل ظاهرة تدهور البيئة في المجتمع الجزائري يبدأ
بالدراسة و التحليل النفسي الاجتماعي لبعض
السلوكيات البسيطة الصادرة عن الأفراد، المتمثلة في رمي
النفايات في كلّ وقت، و في كلّ مكان، و بأيّ شكل،
و التي نراها تصدر عن الكبير والصغير، عن المتعلم و
غير المتعلم، عن الفقير و الغني، عن الذكر و الأنثى.

كثيرا ما نرى أشخاصا يفتحون نوافذ سياراتهم الفخمة
من أجل رمي مخلفات ما أكلوا. بما فيها من زجاجات
بلاستيكية، أو أيّ نفايات أخرى، كما نرى ربات بيت
يرمين أكياسا من القمامات أو كميات معتبرة من المياه
القدرة من شرفات منازلهم، بالإضافة إلى الشباب و
الأطفال الذين يرمون أكياس النفايات المتزلية، أو أي
نفايات أخرى على بعد أمتار بسيطة من الأماكن
المخصصة لذلك، غير مباليين جميعا لا



مقدمة:

تشهد البيئة في الجزائر تدهورا كبيرا من سنة إلى سنة أخرى، هذا رغم كل القوانين والتصوص التنظيمية التي سنتها الدولة، و رقم المواثيق والاتفاقيات الدولية التي صادقت عليها الجزائر، و رغم النشاطات التوعوية و التحسيسية لمؤسسات المجتمع المدني، التي تسعى جاهدة إلى حماية البيئة وترقيتها وتحسينها، ورغم محاولة بعض المؤسسات الاجتماعية الرسمية أمثال المدرسة، و المسجد، غرس الثقافة البيئية، تارة عن طريق تنظيم دروس، أو محاضرات وندوات وأنشطة تبرز أهمية البيئة في حياة الإنسان، و تارة أخرى عن طريق إبراز أحكام الشريعة الإسلامية، التي تحرم الإعتداء على البيئة الطبيعية والحضرية. كلنا نشاهد الحالة الكارثية التي وصلت إليها أحياءنا، خاصة في المدن الكبرى. و نحن نتحدث في هذا الصدد عن غياب المساحات الخضراء الضرورية للنمو المتوازن للأطفال بما توفره لهم من أماكن للعب والاكتشاف، و الضرورية للكبار بما توفره من أماكن للراحة النفسية والتأمل والتعارف، والضرورية للبيئة عامة بما تضيفه من لمسات جمالية، و بما تضمنه من حماية للمناطق الحساسة كالأراضي المعرضة للانزلاق و التعرية و الانجراف، بالإضافة إلى تلطيف الجو و تنقية الهواء تخفيف الضوضاء

عندما نتحدث عن الحالة الكارثية التي وصلت إليها أحياءنا، خاصة في المدن، نحن نشير كذلك إلى تلك التغيرات و القمامات و الأكياس البلاستيكية المنتشرة في كل مكان نوجه إليه أنظارنا، ما يشوه مظهر مدننا، و يعرض صحتنا و صحة أبنائنا لأمراض نحن في غنى عنها. و هذه مظاهر سلوكية تدل في الواقع على غياب الثقافة البيئية، و على تدهور القيم الاجتماعية التي من المفروض أن تهذب سلوكيات الأفراد، و أن تحسن الإطار المعيشي للمواطنين.

1. تحديد أهم مفاهيم الدراسة:

1.1. تعريف البيئة:

كلمة البيئة، هي ترجمة لكلمة Environnement، وتعني لغة المحيط، أما اصطلاحا فيمكن تعريف البيئة على أنها:

- الإطار الذي يحيا فيه الإنسان ويحصل فيه على مقومات حياته ويمارس فيه علاقاته مع أقرانه من بني البشر،

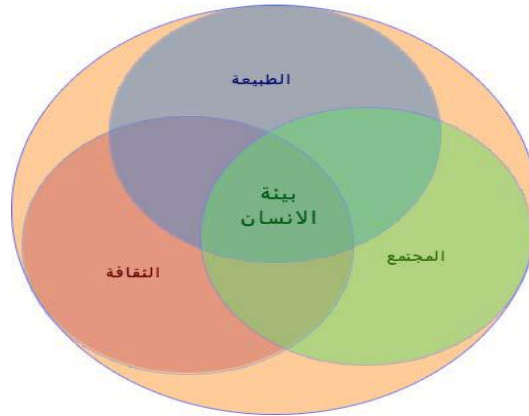
- و هي الظروف الثقافية والاجتماعية المعقدة التي تؤثر على الفرد أو المجتمع.¹

مؤتمر ستوكهولم سنة 1972م هو الذي أعطى هذا الفهم المتسع للفظ "البيئة"، حيث تجاوز معناه الضيق المتمثل في عناصر البيئة الطبيعية (من ماء، و هواء، و تربة، و معادن، و مصادر للطاقة، و نباتات، و حيوانات...) إلى معنى أوسع، إذ اعتبرها "هي رصيد الموارد المادية والاجتماعية المتاحة في وقت ما و في مكان ما لإشباع حاجات الإنسان وتطلعاته."² أما أحمد شفيق السكري فيعتبر البيئة أنها "تلك العوامل الخارجية التي يستجيب لها الفرد أو المجتمع بأسره استجابة عقلية أو إجتماعية، كالعوامل الجغرافية و المناخية من سطح و نبات و موجودات و حرارة، و رطوبة و العوامل الثقافية التي تسود المجتمع و التي تؤثر في حياة الفرد و المجتمع و تشكلها و تطبعها بطابع معين."³

يختلف جمال الدين السيد مع أحمد شفيق في تعريفه للبيئة، فهو لا يحدد علاقة الإنسان بالبيئة في اتجاه واحد، بل هو يرى أنها علاقة متبادلة، و كما تؤثر البيئة في الإنسان و في نشاطاته، فإنه هو أيضا يؤثر فيها، أو كما قال فالبيئة هي "ذلك المحيط الذي يعيش فيه الإنسان، و يمارس فيه نشاطه في الحياة، و هي أيضا ذلك المستودع لموارد الإنسان و عناصر الثروة المتجددة و غير المتجددة، و التي تتفاعل مع بعضها البعض، و تؤثر على الإنسان و تتأثر به."⁴

بالتالي فإن البيئة تنقسم إلى قسمين:

- ✓ البيئة الطبيعية أو المادية أو الفيزيائية أو الجغرافية، وتشمل الأرض و السطح بأشكاله العديدة من خصوبة و تصحر و جبال و هضاب و تلال و وديان و سهول و أنهار و بحار و محيطات و بحيرات و مستنقعات و رياح ، و تشمل المناخ كذلك، بالإضافة إلى مظاهر العمران الحديث.
- ✓ و البيئة الاجتماعية، و تتضمن التنظيم و القواعد و القوانين و اللوائح و العادات و التقاليد و القيم و المعايير و الأعراف و العلاقات الاجتماعية و اللغة و الدين و الأوضاع الاقتصادية، و التنظيم السياسية و الظروف الصحية، و التعليم و الإعلام و الفنون و الآداب. و جميع العوامل و عناصر البيئة مترابطة مع بعضها البعض، و هي مؤثرة في الإنسان و متأثرة به، كما يظهر من الشكل الموالي:



الشكل رقم1: العلاقة بين العالم الطبيعي والاجتماعي والثقافي وبيئة الإنسان المصدر:⁵

2.1. حتمية البيئة Environnementalisme:

هو مذهب يؤكد على تأثير المحيط الطبيعي و الثقافي في نمو الكائن الحي و في سلوكه، و يذهب إلى أن التنظيم الثقافية و الاجتماعية تنشأ وفقا للبيئة الفيزيائية.⁶

تحدث سليمان مظهر مطولا عن حتمية البيئة في تحليله النفسي الاجتماعي لسلوكات الفرد الجزائري، و هو يرى أن الجزائريين قد طوروا نظاما اجتماعيا ثقافيا تقليديا، يقوم أساسا على التكيف و التأقلم مع خصائص البيئة الصعبة في الجزائر، و يظهر ذلك في تركيزهم بشكل مكثف في المناطق الشمالية، و في طريقة تسييرهم للموارد الطبيعية المختلفة (خاصة الثروة المائية، التي لا زالت توزع بتقشف)، و في علاقاتهم الاجتماعية التي تقوم على تشكيل شبكة علاقات اجتماعية، يسعى الجزائري من خلالها إلى تحقيق حاجاته في إطار الإمكانيات المادية المحدودة أمامه.⁷

3.1. تعريف النظام الاجتماعي الثقافي التقليدي:

يعرف نادل (NADEL) النظام الاجتماعي على أنه طريقة مقننة للسلوك الاجتماعي، و هو يرى أن التنظيم لا تشمل على السلوك فقط، إنما تشمل أيضا على القواعد التي تحكم هذا السلوك، و يرتبط النظام -باعتباره سلوكا مقننا- بوجود بعض العقوبات الاجتماعية، و لعل هذا ما يدفع الناس إلى الإمتثال للتنظيم الاجتماعية السائدة في مجتمعاتهم، حيث أنهم يخافون من التعرض للعقاب الاجتماعي.⁸

النظام الاجتماعي السائد في الجزائر هو النظام الاجتماعي الثقافي التقليدي، و هو نظام من النوع الريفي، يتوارثه الجزائريون أبا عن جد، و يقوم أساسا على العلاقات الاجتماعية، التي تضمن للأفراد تحقيق حاجاتهم المادية الضرورية

للعيش في خضم الظروف البيئية الطبيعية الصعبة و غير الآمنة التي يعيشون فيها، خاصة منها الظروف الجغرافية و المناخية و الجيوفيزيائية، و ما يترتب عنها من زلازل، و من فيضانات، و من حرارة شديدة، و من جفاف و قحط...⁹

2. البيئة في النظام الاجتماعي التقليدي:

لعبت البيئة الطبيعية دورا هاما في تحديد ظروف الحياة داخل المجتمع الجزائري، خاصة منها الظروف الإقتصادية و طبيعة العلاقات الاجتماعية. لقد كان للمناخ، تأثيرا واضحا على الجزائريين، الذين إضطروا إلى التمرکز في المنطقة الشمالية من البلاد، حيث تتوفر المياه نسبيا. مع ذلك فإن الظروف الجغرافية عامة، و خاصة السلسلة الجبلية الممتدة طول الشريط الساحلي تقريبا تحد من هذا الإنتشار بشكل كبير، كما أن الظروف الجيوفيزيائية و ما ينتج عنها من زلازل يقلق سكان الشمال باستمرار، و يجعلهم يشعرون بعدم الأمان.

لم تكن المعارف العلمية المحدودة، و لا التقنيات البدائية المتوفرة، لتسمح للجزائريين بمواجهة هذه المخاطر البيئية الدائمة و المستمرة، و التي كثيرا ما كان يصاحبها كوارث طبيعية أخرى كالجفاف، و القحط، و الفيضانات... و كرد فعل لهذا المحيط العدائي، طور الجزائريون نظاما اجتماعيا يقوم أساسا على الآليات النفسية الاجتماعية و الثقافية، التي تسمح للمجتمع بالاستمرار رغم هذا التهديد الدائم الموجه ضدها.¹⁰

يمكن أن نلخص هذه الآليات النفسية الاجتماعية و الثقافية في الإعتماد الكبير على شبكة العلاقات الاجتماعية، و على تقسيم العمل بين أفراد الجماعة، حسب سن و جنس كل واحد منهم، بالإضافة إلى تقسيم ما تنتجه الطبيعة -رغم قلته- بشكل يسمح للأفراد بالبقاء على قيد الحياة. و هذا طبعاً لم يكن بلا آثار على تصورات الأفراد للبيئة، و العلاقة التي تربطهم بها.

3. علاقة الفرد الجزائري بالبيئة:

يمتاز الوضع البيئي في الجزائر بالتدهور و اللامبالاة، إذ أنها تتعرض إلى زحف كبير للرمال من الجنوب باتجاه الشمال، مع نقص فادح للغلاف أو الغطاء النباتي، الذي يتناقص باستمرار بفعل الجفاف و زحف الأسمنت أو التعمير و البناء العشوائي، بالإضافة إلى سياسة اللا تشجير رغم أن التشجير كان حتى نهاية السبعينات من أجيديات العمل التطوعي. من مميزات الوضع الإيكولوجي في الجزائر أيضا نقص الموارد المائية و تدهور الوسط البحري بفعل التلوث البيئي من جهة، و الصيد العشوائي من جهة أخرى، زد إلى ذلك تدهور الشواطئ بفعل سرقة الرمال، و التلوث الصناعي المقلق، و الرمي العشوائي للنفايات السامة، مع فتح عشوائي لمفرغات عمومية في الهواء الطلق، دون أي مراعاة للأساليب العلمية للتخزين، و الرسكلة.

و في مقابل كل هذا هناك ضغط ديمغرافي شديد، و مشاكل حضرية تؤثر سلبا على الأوضاع الصحية الصعبة و المؤلمة، حيث عادت حالات التيفويد من جديد إلى العديد من مدن الجزائر: أم البواقي 1997، عين طاية 1997، خنشلة 1998، بسكرة 1998، برج بوعرريج 2017¹¹، بسبب اختلاط مياه المجاري بالمياه الصالحة للشرب. زد إلى ذلك حالات التسمم الغذائي الجماعي، التي يذهب ضحيتها في كل سنة ما بين 3000 و 5000 حالة تسمم حسبما صرح به الطبيب حاج لكحل بلقاسم من المعهد الوطني للصحة العمومية¹².

لا يتوقف الجزائريون عن إنتقاد الوضع الذي آلت إليه الجزائر و مقارنته بوضع البلدان المتقدمة، و من أول و أهم النقاط التي يعتمدون عليها لإجراء هذه المقارنة، "وصف البيئة و جمالها و نظافتها" في البلدان الأوروبية، مع التطرق إلى

السلوكات الحضارية المفروضة إتباعها في التعامل مع البيئة. وهذا يعني حتما أن الجزائري يعتبر البيئة أول مؤشر على التّحضّر والتّقدّم.

الكلّ في الجزائر يعترف بأنّ وضع البيئة لا يسرّ أحدا، وجميع ينتقد السلوكات غير الحضارية التي يقوم بها العديد من الأفراد، والكثير يذكر بما جاء في القرآن والسنة النبوية من حث على الحفاظ على البيئة والعناية بها، وبما فيها من غطاء نباتي، وحيواني، و ثروات طبيعية التي يتمّ استنزافها بشكل غير عقلاني، و بلا ضوابط أخلاقية...

مع ذلك فإنّ أغلب الجزائريين يستمرون في التعامل مع البيئة بشكل سلبي جدا، فكثيرا ما نرى أشخاصا يفتحون نوافذ سياراتهم الفخمة من أجل رمي مخلفات ما أكلوا أو أيّ نفايات أخرى، وكثيرا ما نرى ربات بيت يرمين أكياسا من القمامات أو كميات معتبرة من المياه القذرة من شرفات منازلهن، بالإضافة إلى الشباب و الأطفال الذين يرمون أكياس النفايات المنزلية، أو أي نفايات أخرى على بعد أمتار بسيطة من الأماكن المخصصة لذلك، غير مباليين جميعا لا بما ينتج عن ذلك من آثار سلبية على الصحة العمومية، و لا عن صراعات إجتماعية خاصة بين الجيران. وهذا في الواقع راجع لطبيعة العلاقة التي لطالما ربطت الجزائري ببيئته، وهي علاقة سلبية، تتسم في الغالب بالعدائية، و تنم عن روح إنتقامية، لما يلقاه من عراقيل، و صعوبات في العيش.

طور الجزائريون عامة هذه العلاقة العدائية مع بيئتهم، سواء كانت البيئة الطبيعية (المادية، و الفيزيكية، و الجغرافية)، أو البيئة الإجتماعية حتى قال مظهر سليمان في كتابه "العنف الإجتماعي في الجزائر" (la violence sociale en Algerie) ما نصّه: "إنّ وحشية الفاعلين الإجتماعيين تعادل وحشية البيئة الفيزيكية التي يترعرعون فيها، إذ أنّ الزلازل التي تأتي بشكل دوري، و الجفاف الذي يطول أمده أحيانا، و الفيضانات، و التعرية، هي من أهمّ مظاهر البيئة المادية، خاصة في شمال البلاد، و يقابلها عند الفاعلين الإجتماعيين فيه أوجها عابسة، و نظرات حادة، و تعابير وجه مثيرة للاشمئزاز. يكفي أن نعود إلى الفترات الماضية، التي عرفت فيها الجزائر غزوا مدّمرا للجراد و للأوبئة، أو للصراعات الإجتماعية، التي تتناقلها الأجيال المتتالية، و كأنّها عيب وراثي، لتتأكد من أنّ الحياة في هذا المجتمع (الجزائري) تسير تحت التهديد المستمر للمخاطر، و لعدم الأمان، و للشك، و لعدم الاستقرار".¹³

و تجدر الإشارة إلى أنّ الإنتقال من الريف إلى المدينة، و ما استدعاه ذلك من عمليات التّعمير الكثيرة قد عقّد الأمور أكثر، ذلك لما نتج عنها من زحام و اكتظاظ سواء في الطرقات أو في الأحياء، بالإضافة إلى ارتفاع نسبة الضّجيج والتلوث والمخلفات الصّلبة و استهلاك المجال الطبيعي، الذي يعدّ رئة الأرض كلها و ليس المدينة فقط.

و بدل من أن تساعد ظروف المدينة الحضرية الفرد الجزائري على التّصالح مع بيئته، لما توفّره المدينة من إمكانيات مادية و رفاهية، عقدت أمور حياته أكثر، حيث جعلته يعاني من زحام المرور، و من التلوث، و من نقص الغطاء النباتي، و من ضيق المسكن، و ما يترتب عن ذلك من صراعات إجتماعية لا متناهية. وهذا لم يزد من عداء الأفراد للبيئة فحسب، بل جعلتهم يجدون صعوبة كبيرة في التكيف مع المحيط الحضري، مما دفع بالبعض إلى محاولة استنساخ ظروف الحياة في القرية. هذا أدى إلى انتشار بعض المظاهر الخاصة بالريف مثل تربية الدّجاج و الخرفان و البقر داخل المدن، وهذا ما زاد في تدهور البيئة أكثر داخل الأماكن الحضرية المغلقة.

و لعلّ ما زاد الطين بلة هو غياب أو عدم كفاءة الهيئات التي يمكن أن تنظّم الحياة داخل المدن عامة، و داخل الأحياء تحديدا، و التي يمكن أن تعوّض جماعة القرية، التي كانت تتولى شؤون سكّان القرية، و جوامعها، و طرقاتها، و مدارسها،

و تهتم بتوزيع خيراتها، و مواردها الطبيعية بالشكل الذي يخدم الفرد و الجماعة معا، مع مراعاة متطلبات البيئة و شروطها، سواء في الصيد أو الزراعة أو ذبح الأضاحي...
الخلاصة:

إن العلاقة التي تربط الأفراد ببيئتهم علاقة متبادلة، و لطالما كانت هذه العلاقة تتميز في مجتمعنا بالعدائية، ذلك نظرا لعجز الجزائريين عن التحكم في بيئتهم، و في مختلف جوانبها الجغرافية، المناخية، و الجيوفيزيائية. و رغم العديد من الجهود المبذولة هنا و هناك، سواء من طرف الدولة، أو مختلف المؤسسات الاجتماعية، أو الجمعيات التي تسمى نفسها "صديقة البيئة"، من أجل حماية البيئة، فإن كل هذه الجهود قد باءت حتى الآن بالفشل، كما تشهد على ذلك حالة البيئة في الجزائر عامة، و في المدن الكبرى على وجه الخصوص.

و ذلك في الواقع يعود إلى جهل أو تجاهل تأثير التصورات السلبية العميقة التي شكّلها الجزائري عن البيئة، و ما ترتب عن ذلك من عدائية عبر الأزمان و العصور. و عليه فإن الوضع البيئي في الجزائر لا يمكن أن يتحسن، كما أن الحملات التحسيسية لا يمكن أن تأتي أكلها، إلا إذا عملنا على تحسين هذه العلاقة، و ذلك لن يكون إلا من خلال توظيف المعلومات العلمية و التكنولوجية الحديثة من أجل التعرف الجيد على بيئتنا، و على خصوصيتها، مع وضع الآليات العلمية الحديثة للتحكم فيها، و الحد من المخاطر التي قد تصدر عنها.

الهوامش

عميرات أمال (2011): "أسس التربية البيئية في مجال الإتصال العمومي" عن فكر و مجتمع، العدد العاشر، طاكسيج كوم للدراسات و النشر و التوزيع، الجزائر، أكتوبر 2011، ص. ص. 201-206.
غربي عبلة (2008-2009): التربية البيئية في المدارس الابتدائية -مدارس مدينة قسنطينة نموذجا-. رسالة ماجستير في علم الاجتماع، تحت إشراف أ. د. صالح فيلاي، جامعة منتوري، قسنطينة.

MAKHLOUF-BENTOUNES SADJIA: « La représentation de la femme dans le système sociale traditionnel (approche psycho-sociale) » in Gender resistance and negotiation, édition DAR EL AMEL, 2011, p.p. 259-268.
MEDHAR Slimane (1992): Tradition contre développement. Edition En.A.P, Algerie.
MEDHAR Slimane (1997): la violence sociale en Algerie. Thala Editions, Alger.
https://www.uop.edu.jo/.../105_562_Eman.pdf
<http://www.algeriepost.com>
<https://www.djazairess.com/echchaab/7221>

الحمد & صباريني 1979، ص. 24

الحمد & صباريني 1979، ص. 24

3 - السكري، 2000، ص. 25

4- عن غربي، 2008-2009، ص. 11

5- https://www.uop.edu.jo/.../105_562_Eman.pdf

6- بدوي، 1982، ص. 136

7 - MEDHAR, 1992, p.16

8 - in MAKHLOUF-BENTOUNES, 2011, p. 260

9 - MEDHAR, 1992, p.15

10 - MEDHAR, 1997, p.p.18-19

11 - <http://www.algeriepost.com>

12 - <https://www.djazairess.com/echchaab/7221>

13 - MEDHAR, 1997, p.p.17-18

قائمة المراجع

بدوي أحمد زكي: معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، إنجليزية فرنسي

عربي. مكتبة لبنان، بيروت، 1982.

السكري أحمد شفيق (2000): قاموس الخدمة الاجتماعية و الخدمات

الاجتماعية. دار المعرفة الجامعية.

الحمد رشيد & صباريني محمد سعيد (1979): البيئة و مشكلاتها. عالم

المعرفة، الكويت.

حمود ألفانا مصطفى (1994): موسوعة الفلك، الكون، البيئة، و التلوث.

دار الفكر اللبناني، بيروت.

السرطاوي فواد عبد اللطيف (1999): البيئة و البعد الإسلامي. دار المسيرة

للنشر و التوزيع، و الطباعة، عمان.